ذات صباح، استيقظت

• يمنى فرحات*

من وحي المنفى العراقي

استيقظتُ، فوجدتُ نفسي مرميّاً على رمال هذا الشاطئ، وفي رأسي تَصْدح إحدى قصائدي التي لم أجد لها نهايةً بعد. كيف وصلتُ إلى هنا؟ وبأيّ اسم؟ لم أعد أذكر.

وقفتُ. كان البحر أزرق، أزرق.

استدرتُ، فطالعتني تلال قاحلة نبتتْ فيها أشجارُ الصبّار وبعضُ الأشواك بين الصخور الوعرة.

شعرتُ بالجوع، فتّشتُ طويلاً من حولي فلم أجد شيئًا. قررتُ صعودَ التلال.

حين بلغتُ قمة إحداها، ذهلتُ، إذ وجدتُ نفسي فوق جزيرة صغيرة لدرجةِ انني أرى البحر يحيط بها.

كانت المياه من الزرقة بحيث تُدخل الرهبةَ في القلب.

وتذكرتُ، تذكرتُ العاصفةَ والسفينةَ التي تموج، وصرخاتِ الاستغاثة، وتلك الأكوامَ البشريةَ المرميةَ وسط عالم هائج لا يعرف الرحمة.

كنتُ قد قررتُ منذ شهرين أن أعيد من جديدٍ الطرقات التي عبرْتُها منذ أكثر من عشر سنوات حين قال لي أحدُ الأصدقاء والرفاق وكبار المناضلين: «عليكَ بالرحيل. هنا لا أمان لك بعد اليوم، ونحن لا نحميك.»

سافرتُ آنذاك أيضًا على سفينة متهالكة القوى، وكنا كُثرًا. نَهرب من واقعٍ صَنعه الغربُ، إلى الغرب المصنوع في خيالاتنا من مزيجٍ من الاحتقار والانبهار.

ووصلتُ إلى الدانمارك. لا أعرف كيف. على طرقات، في ليالٍ مع تجّار، مع لصوص، مع قوى أمن. لا أعرف. كنتُ أتوارى من خطر الموت خلف أشعاري، أكتبُ لأنسى، أكتبُ لأتذكر، أكتب كي لا أموت خوفًا.

قلتُ لهم: أريد اللجوء السياسيّ.

قالوا: تكلّمْ.

كان عليهم أن يتأكدوا من التفاصيل المميتة في عالمنا. و كان عليّ أن أكون مقْنعًا. فحشدتُ ذاكرتي بكلّ مذابح تاريخنا. ورحتُ أحكي:

◆ ◆ ◆

قلت لهم: أنا من العراق. قاتلتُ لأعيد خلق فلسطين، وقاتلتُ لأعيد تشكيل لبنان، وقاتلتُ لأعيد الحياة إلى العراق.

وكانت النهايات دومًا تُشْبه ما حصل في ذلك اليوم الغريب في بغداد، يومَ خِلْنا أنّ انتفاضة السجون ستغيّر كلّ شيء.

كان الغرب يحاصرنا ويُمْطرنا بقذائفه، وكنّا نريد تغييرَ ما في داخلنا.

حطّمْنا أبوابَ السجون وأخرجناهم. كان المنظر مخيفًا. رحتُ أتساءل: ما الذي يجعل الإنسان إنسانًا؟ الهواء، الضوء، الانفلات؟

كنتُ أرى أمامي هياكلَ حُرمتْ لعشرات السنين من كلّ ذلك. آمنتُ آنذاك بقيمة الهواء المفتوح على المدى البعيد.

رأيتُ أمامي وحوشًا آدميةً فقدتْ مسحتَها البشرية.

وكانت تلك هي بالضبط نهاياتِ كلّ ما فعلتُ.

مسوخ بشرية تَسْحقنا، فنتحوّل بدورنا إلى مسوخ أخرى لا تقلّ هولاً...

---

* - كاتبة لبنانية شابّة. وهذا اسم مستعار.

أظنّ أنّ روايتي أعجبت المحقّق الدانماركي، فمنحني ما طلبتُ. وبعد سنوات، أصبحت دانماركيًا.

كنتُ كمن انتقل من عالم إلى آخر. كلّ شيء كان مختلفًا: الأصوات، العيون، الشعر، النظرات،... صقيعُ غربةٍ لا مفرّ منها، ولكنْ دفءُ إحساسٍ بالأمان وباحترام الذات. أصبح لي منزل وراتب شهريّ، وكنتُ في بعض الأحيان أجد عملاً في دكّان صغير لبيع الجرائد أو المأكولات. صحيح أنني فشلتُ في جميع مشاريعي، لكنني كنتُ أعرف دومًا أنّ الشارع والجوع لن يكونا مصيري المحتوم. كان شعور رائع بالراحة يحتلّ أعماقي.

ثم التقيتُ عمر، رفيقَ سنوات الأفكار والسلاح والأحلام. كان يقول لي: «أهذه هي البورجوازية المتعفّنة التي كنا ننتقدها ونسعى إلى تدميرها؟ إنّها لَتمنحني من الكرامة ما لم أجده لدى جميع تنظيماتنا البروليتارية. والله، إنّنا نحن المتعفّنون، يا رجل.» ويروح يربّت على كتفي بثقةِ مَنِ اكتشف أهمّ الحقائق، غامزًا بعينه بمرارة واضحة.

بالرغم من حياتي الوادعة، كنتُ أرى أنّه يبالغ. لكنني لم أكن أصغي إليه طويلاً لانشغالي بأخته «جمال.» كانت امرأةً رائعةً، مشتعلةً دومًا بهمّ مساواتها بالرجل، بتصميم ولكنْ أيضًا برقةٍ تكاد تفوق التصوّر. قلتُ في نفسي: «هذه هي المرأة التي يمكن أن أعشقها. لا تكلّ أبدًا عن السعي إلى توكيد ذاتها، إلى تجسيدِ ولو جزءٍ من كلّ تلك الأفكار التي كنتُ أقاتل لأجلها.»

قرأتُ لها كلّ قصائدي وتزوجنا.

◆ ◆ ◆

يُفترض أنني كنت، في تلك المرحلة، سعيدًا. ولقد كنتُ كذلك حقّاً، لولا ذلك العجز الشعريّ الذي لازمني منذ دخولي بلادَ اللجوء. إذ لم أعد قادرًا على الكتابة. هكذا، بكلّ بساطة: أُمسك القلمَ ولا أَكْتب، أَعْتصر أفكاري ولا أشعار، أَهْصر روحي ولا تَخرج الكلمات.

كلما حاولتُ تركيبَ الكلمات، تذكّرتُ الشمس في البلاد، وذابت أوصالي حنينًا لدفئها. صدقًا، لم يكن الأمرُ مجردَ حنين إلى مكان ولدتُ وترعرعتُ فيه. لم أَشعر يومًا بالحاجة إلى العودة، بل كنتُ أحسّ بالنفور من كلّ تلك الخيبات التي لازمتْ أحلامي أكثر من عشرين عامًا.

كانت الشمس فقط هي التي تنقصني. لا. كان هناك شيء آخر يُشْبه الصقيعَ في بلد اللجوء هذا. كانت الكلمات تَهرب مني. أو كان العالم المحيط بي ينتزعها انتزاعًا.

توقفتُ عن كتابة الشعر. وكان ذلك يعني بالنسبة إليّ تحوّلي إلى نقطةٍ لا معنى لها وسط هذا الكمّ الهائل من البشر.

رحتُ أصدح أحيانًا بالأغاني العربية بصوت عالٍ، أو أقرأ دواوين الشعر والروايات بكلّ ما أوتيتُ من قوة.

كان يمكنني أن أفعل ذلك في منزلي. لكنْ، في الشارع، كانت الحروف العربية الجميلة، الرائعة، المتناغمة، تثير حساسيةَ المارة. وكان بعضُهم يصل إلى حدّ شتمي. في المرة الأولى أُصبتُ بالذهول. وفي المرة الثانية فكّرتُ بالردّ ولم أفعل. وفي المرة الثالثة تعوّدتُ وأخذتُ بنصيحة الأصدقاء الذين حثّوني على عدم إثارة المشاكل: فقد تكون النتيجة غيرَ محمودة العواقب.

فيما بعد، علمتُ أنّ الجميع يعانون مثلَ هذه التعدّيات... حتى من دون أن يَنْطقوا العربية! وقد وصل الأمرُ أحيانًا إلى حدّ تلقي مكالمات هاتفية هدفُها كيلُ السباب والدعوةُ إلى مغادرة هذه البلاد.

قلت: لا بأس. جمال، أعينيني. دعينا نُغرقْ كلّ هذه الصغائر في دوّامة عشقنا الرائع.

وأصبحتُ أبًا. سمّيتُها سومر، وسمّيته بابل. وسوّرتُ منزلي بسياج العراق.

ولكنني بقيت عاجزًا عن كتابة الشعر. يا وجعي الذي لا علاج له. كيف أغازلكِ يا جمال دون قصائد؟

لكنّ جمال لم تشأ انتظارَ ولادة عسيرة، أو ربّما مستحيلة. ذات يوم، اختفت ومعها سومر وبابل. تركتْ لي رسالةً تطْلب فيها الطلاقَ وتعطيني عنوانَها وتَعِدُني برؤية طفليّ إذا لم أُثِر المشاكل. ركضتُ كالمجنون إلى هناك. كانت برفقة رجل آخر. دانماركيّ شاب.

لم تشأ أبدًا أن تقول لي لِمَ فعلتْ ذلك. غضبتُ، بكيتُ، صرختُ، ركعتُ، توعّدتُ، توسّلتُ. وهي بقيتْ جامدةً كالحجر. وفي لحظة، قرّرتُ أن أكون في مستوى الحضارة التي أعيش فيها: قَبِلْتُ أن يبقى الولدان معها وأن أزورهما كلَّ أسبوع.

وعُدْتُ من جديدٍ أحاول كتابة الشعر.

عبث. كلّ شيء عبث.

قرّرتُ العودة إلى البلاد. أعيد تركيب هروبي الأول بالعودة على الطرقات نفسها.

... باطل. كلّ شيء باطل.

أمام هذا البحر الأزرق، تتساوى جميعُ الأمكنة.

قبل «العاصفة،» كان آخر اتصال لي بأخي في العراق. قال إنّه وجد لي عروسًا ملائمة، وإنّ أمي خطبتْها. قال لا يمكنني دخولُ العراق، لكنّها ستوافيني في بلاد أخرى. قال إنّها، ولا شكّ، أفضلُ من زوجتي الأولى المنفلتة. لم أقل شيئًا. هبّت العاصفةُ. وها أنا حيث أنا:

ملكٌ في أرض خارج الأرض.

أَشْعر بالجوع، وليس من حولي ما يُؤْكَل.

أشعر بالخوف، ولا أجد ما أطمئنّ إليه.

أشعر بالبرد، والدفءُ بعيدُ المنال.

صحراء. كلُّ ما حولي صحراء. وأنا سجينُ المدى المائيّ المترامي. لا مع الصحراء انسجمتُ، ولا عرفتُ كيف أطفئها بمياه البحر.

سأبقى هنا، أمام هذا المدى، أنتظر موتي.

باريس